طب نفسى

العلاقات المصرية العربية: عبادة عجل من الورق الأخضر!

د. محمد شعلان

التنوير

سيدة فى الخامسة والثلاثين من عمرها ، متزوجة منذ عشر سنوات ولم تنجب طفلا حيا بعد ، وإن كانت قد حملت مرارا دون أن يكتمل الحمل . سافرت مع زوجها للعمل فى بلد عربى شقيق « نفط مالى » منذ عدة سنوات . وهو بلد يتوافد عليه المصريون بكثرة من أجل العمل .

لقد حضرت فى عطلة الصيف لزيارة الأهل والأصدقاء علاوة على طلب العلاج . فإنها تعانى من قلق شديد مصحوب بإحساس عميق بالكآبة واليأس . إنها كثيرة البكاء ، قليلة النوم ، غير مقبلة على الطعام . تضطرب لأقل صوت . وهى تشكو من الوحدة . وتذهب بذاكرتها إلى السنين الطويلة التى قضتها فى الخارج . إذ منذ سفرها وابتعادها عن الأهل والأصدقاء وهى تعيش فى غربة . وهى وزوجها ليس لهما اهتمام الا بالعمل والعمل ليس له هو هدف إلا الحصول على أجر سخى يدخران منه فى السنوات الثمان استعدادا للسنوات العجاف بعد عودتهما إلى الأجر البخس . فهذا هو المقابل لذلك الحرمان من الدفء والحياة الاجتماعية اللتين كانا يتمتعان بها فى مصر .

كان بوسعهما أن يعوضا افتقادهما لذلك بواسطة إنشاء علاقات جديدة فى موطنهما المؤقت الجديد . فهو بلد عربى ومسلم والمفروض أننا جميعا إخوة عرب ومسلمون . وإذا كان الفرق بين العربى والأعجمى هو التقوى فقط ، فما بال الأمر والمسألة ليس فيها أعجمى . كلانا العامل وصاحب العمل . عرب مسلمون . فالأحرى ألا يكون هناك فرق بيننا .

ولكن هنا فرقا . وهو فرق واضح وملموس بل صارخ . إنه يبلغ درجة الصفع أو البصق فى الوجه . هناك عربى مالك لمال وللسلطة وعربى أجير ليس له فى المال إلا أجره ولا فى السلطة إلا خضوعه .

ومع ذلك فهما لم ييأسا بعد . فهذا البلد العربى به أياد عاملة مصرية كثيرة . ولعلها من الممكن أن يجدا الأخوة فى تكوين علاقات مع المصريين هناك . فالأخوة إن كانت متعذرة بين العربى والمصرى بسبب وجود حاجز الملكية بينهما ، قد تتيسر بين المصرى والمصرى ، فهما أخوان فى الفقر النسبى والخضوع النسبى . ولكن مساعيهما فى هذا الاتجاه تقابلها عوائق أخرى . فالمالك عبر الزمان تعلموا حيلة أن يفرقوا بين الأجراء ، فمنعهم الفرقة من أن يصيروا قوة بفضل الوحدة .

وبواسطة هذه الفرقة يتمكن المالك من إحكام السيطرة عليهم . وهو يغذى الفرقة بأن يخلق روح المنافسة بينهم . فقد يبث المنافسة بينهم بناء على درجة ولائهم للمالك ومدى استعدادهم للوشاية بإخوانهم ويتمكن بفضل تحكمه فى صنبور الذهب الأسود الذى يستبدل به ذهبا ، من الورق المالى الأخضر ويلوح فيه ، فيعطى من يدين له بالولاء ويحرم من لا يدين .

والمالك يؤمن بجامعة الشعوب العربية . وهو لا يجرؤ ولا غيره على مهاجمة شعب مصر . فهو يعلم أن شعب مصر هو مصدر قوته الاقتصادية الإنتاجية . فالمالك لا يملك إلا المال . أما العامل المصرى فهو يملك يده وعقله . ويملك القدرة على العمل والبناء والإنتاج ، إنه يملك الحضارة . وفوق هذا فهو يملك القوة الفعالة التى تغنيه عن الاغتيال فى الظلام أو اغتيال الأفراد . وشعب مصر يبدو هادئا ووديعا . ولكنه إذا غضب فهو كمثل الحليم – لن يعرف ساعتها مالكا ولا مستعمرا .

المالك يسعى إلى إبقاء حالة الفرقة بين أبناء مصر فى الخارج . ويبدأ بأول درجة من التمييز حول من يدين له بالولاء ومن لا يدين . ونتيجة لذلك فقد أيقن الزوجان أن الأخوة التى كانا يبحثان عنها بين المصريين هناك غير متيسرة . ولذلك اكتفيا بنفسيهما . لقد صار كل منهما المصدر الأساسى للصداقة والأخوة للآخر . الزوج يذهب إلى العمل ويعود إلى منزله ليبحث عن الدفء والحنان والراحة التى افتقدها طيلة النهار . ولكنه يجد أن زوجته بدورها قد عادت من عملها حيث افتقدت المحبة والأخوة لتبحث هى الأخرى عن التعويض فى المنزل ، كلاهما جائع يطلب المعونة . ولكنهما يكتشفان أن كلا منهما كعبد المعين الذى جاءه صاحبه طالبا المعونة فوجده هو الآخر فى حاجة إليها . « جيتك يا عبد المعين تعينى لقيتك يا عبد المعين تعان » ! !

كانا قد أجلا العمل فى بداية زواجهما لأنهما وضعا أولوية لجمع المال من العمل فى هذا البلد العربى ، ثم العودة به لشراء شقة وتجهيزها ، ولهذا لم يكونا مستعدين للانشغال بتربية الأطفال .

ولكن الوحدة ومرور السنين جعلت هذا الطلب يلح . المرأة تشعر بأن وجودها ناقص بدون إنجاب . وتشعر بعدم الاستقرار لأنها تخشى أن زوجها سوف يبحث عن غيرها . فالزوج الذى يشق ليجمع المال يريد أن يطمئن أن هناك أبناء له سوف يرثونه ، إنه لا يريد لرجل آخر أن يرثه . بأن يتزوج هذا من ارملته إذا ما ترك هو الدنيا قبلها . كلاهما يريد طفلا والزوجة تجهر برغبتها التى هى أكثر إلحاحا . والرحم يستعد لاستقبال ذلك الكائن الجديد الذى يجمع بين خلية منها وخلية من زوجها . ولكن الضيف الجديد لا يأتى . فيلقى الرحم باستعداداته . يسقط ذلك الجدار البشرى الذى بناه لكى يحتضن البويضة الملقحة ويأخذ معه بعض الدم الذى كان يتوافر فيه لتغذية الكائن الجديد .

إنها تحزن كل شهر مع رحمها . وقد يخلق الحزن بأمر من عقلها أن هذا ليس الوقت المناسب . ولكن الصبر يطول . والرحم يطلب

حقه فى العمل وفى إتمام دوره ووظيفته . فيفرض مطلبه على عقلها الذى يخضع وتثور بوعيها أن تحمل ولكن الرحم طال تعطيل وظيفته وتعود على الوحدة . ولعله كان فى الأصل به عيوب تجعله غير قادر على أداء الوظيفة أداء كاملا . لعله كان صغيرا أو مقلوبا أو به غشاء يجزئه إلى جزءين أو لعل القنوات الفالوبية التى تنقل البويضة ضيقة أو مسدودة . ولعل هناك اعتداء قد وقع عليه فى وقت ما ، كالاعتداء بالجراثيم أو الطفيليات . فأصابه بالالتهابات التى افقدته القدرة على أداء وظيفته . لقد جاء القرار بالحمل ولكن الاستعداد له قد فقد . هى تريد أن تحمل ولكن الرحم يعجز . تحمل فتجهض . وأحيانا لا تحمل أصلا .

ويدخل الطب الحوار . ويسعى إلى مصالحة الرحم مباشرة دون أن يعبأ بصاحبته أو بقرارها فالطب . وخاصة المتخصص منه ، يركز اهتمامه على اعضاء الجسد التى تخصه ويكاد لا يعبأ ببقية الأعضاء ، ناهيك عن الإنسان صاحب هذه الأعضاء . ويتفق الطب والمريض على ألا يتعدى الحوار مثل هذا المستوى العضوى . وعلى هذا الأساس تستمر صاحبة الرحم فى وضع آمالها وآلامها فى رحمها . انها تتصور أنها شقية لأنها لم تنجب وأنها سوف تسعد إذا أنجبت وأن إنقاذها فى يد الطبيب . وكلاهما ينسى أن هناك مشكلة أخرى وراء مشكلة الرحم . وأن المشكلة ليست مجرد مشكلة رحم .

ويستمر الأمل ، ويزداد كلما تأخرت الدورة الشهرية أياما . ثم يخنق الأمل فجأة ويحل محله ألم مضاعف نتيجة خيبة الأمل .

وتغمر الدموع الساحة كلها . ولم يعد البكاء بكاء رحم . بل بكاء إنسانة . وتتضح أبعاد المشكلة وتشعباتها .

لقد عانت من الوحدة مع زوجها . حينما تركت بيت الأهل ، حيث نشأت بين أبويها وإخوتها ، إلى بيت الإنجاب ، حيث الاستعداد لتكوين أسرة جديدة ، انتقلت من مرحلة الشباب إلى مرحلة الرشد . حيث تواجه تحدى التخلى عن هويتها التى كانت لتوها قد أكدتها فى مواجهة أسرتها ، لكى تشترك مع آخر مع جنس مخالف ، فى تكوين كيان جماعى جديد .

كانت فى صباها مجرد امتداد مطيع للأسرة فثارت فى شبابها لتقول : أنا لست ما أمل على – قل طابعى الخاص وتاريخى وطموحى .. فى هوية مستقلة . ذهبت إلى الزوج لتتنازل عن هذا المكسب الذى حققته لتقول : إن ما كان خاصا فى أعطيه لك يا شريك حياتى .. وبالطبع آخذ منك فى المقابل ما هو خاص بك . إننا نشترك فى تكوين كيان جديد .

كانت هذه الثقلة من أسرة الأهل إلى أسرة الإنجاب هى الثقلة من حال تعودت عليه إلى حال جديد . وبالقدر الذى لم تعد له فإن الثقلة تكتسب طابع الصدمة . وتتسم بالحزن لفقدان شىء قديم . لقد فقدت أسرة الأهل وشعرت بالوحدة مع زوجها بالإضافة إلى الشعور المتوقع وهو الشعور بالمشاركة ومجاوز الوحدة والعزلة .

ثم اكتشفت أن أسرة الإنجاب أمامها خطوات أخرى قبل أن تصبح منجبة فعلا . فالإنجاب يتطلب مسكنا ومصدرا للرزق يتعدى احتياجاتها الذاتية . مطلوب فائض من إنتاجها يذهب لرعاية الأبناء . والإنتاج الحالى ، بأجور كانت بالكاد تصلح منذ عشرين عاما ، أصبحت اليوم تساوى فى قوتها الشرائية أقل من عشر قيمتها . المطلوب لكى يكون دخلها كما هو مقدن نظريا ، عشرة أضعاف حجمه الحالى . ولعل هذا الدخل يتوافر فى الدول العربية « النفطالية » فليؤجلا الإنجاب إذن حتى يوفرا الفائض اللازم ويزداد الخير حينما يكتشفان أن العزلة الاجتماعية حيث يعملان فى هذا الدولة العربية ، لا تشجع على الإنجاب . فلا توجد جدة أو عمة أو خالة ، بل بالكاد توجد مربية ، تستطيع أن توفر الرعاية للطفل .

وهكذا تلقت أول صدمة ، وهى الانتقال من أسرة الأصل إلى أسرة الإنجاب صدمة ثانية وهى الانتقال من المجتمع الذى نشا فيه إلى مجتمع آخر بلا أقارب ولا أصدقاء .

ثم جاءت الصدمة التالية بأن اكتشفا أن العروبة والإسلام يختفيان حينما تظهر المنافسة على ملكية المال أو السلطة بل إن الانتماء المصرى يختفى هو أيضا عند هذه الحالة . ولماذا نذهب بعيدا : ففى صراع السلطة والمال نجد الأخ يقتل أخاه أو قد يتحير إذا ما تخلى عنه أخوه .

كانت مواساتها أنها يذهبان لبناء جزء من أمتها . ولكنها اكتشفا أنها كالأجراء يعملان عند صاحب ملك ، ولاؤه الأول لماله الأسود : بل للمال الأخضر الذى يطبع ويخزن فى بنوك العالم الغربى . إنه لا يبنى أمة ولا حتى يبنى وطنا . كل ما يفعله أن يستورد حضارة جاهزة بكل معداتها التكنولوجية ويزرعها فى الصحراء إنه يستورد الآلة . ولكنه لا يستورد القدرة على صنعها ، بل صيانتها بل حتى تشغيلها ويزداد ولاؤه بالضرورة لذلك العالم الغربى الغريب ، وكذلك اعتماده عليه . أما أبناء الوطن أو أبناء الأمة العربية فليس لهم إلا أن يحذروا بواسطة هذه الرقابة التى أصبحوا يتعلقون بها كالمدمنين حتى إذا ما انسحبت منهم لسبب أو لآخر ، لعل أوضحه أن البترول ذاته سوف يجف وينضب – فإنهم عندئذ سوف يصرخون ويتشنجون ، فقد تعودوا ألا ينتجوا بل يستهلكوا . وتعودوا أن يعملوا كالأجراء بلا ولاء . فإذا انخفض الأجر أو انقطع توقفوا عن العمل .

لقد انقشع حلم القومية العربية ولاح حلم الأمة الإسلامية فى الأفق كبديل يشعل حماسته وإيمانه . ولكن هذا الحلم أيضا يتقشع رويدا رويدا . فهذه بلاد الكعبة المقدسة وبلاد الجماهيرية وبلاد الإمامة الشيعية توقع كلها الشعارات الإسلامية ، لا للتعارف ولكن للتقاتل والتخاصم . والمسألة ليست فى حاجة إلى وعى سياسى . فيكفيه أن يرى أن صاحب الملك المسلم لا يأخذ من الإسلام إلا ما يبيح له استغلاله ومص دمائه ! وإنه يأخذ بالمظهر ويلبس الملابس الإسلامية ويطلق لحيته ويمتنع عن الإفطار جهارا نهارا ، بل يصدر التشريعات لمعاقبة المفطر جهارا نهارا ، والتشريعات التى تمنع الاتجار والتعاطى للمشروبات الروحية حتى إذا ما عاد إلى منزله المستورد المكيف والمفتوحة نوافذه لا على مآسى إخوانه المسلمين فى جميع أنحاء العالم ، بل على الملذات الحسية التى يصدرها له الغرب بواسطة تكنولوجيا الفيديو والإرسال اللاسلكى . وهناك يستمع بتعاطى المشكر ويغرق فى الملذات الحسية ، مستوردا الجوارى والغوانى . إنه يتعامى عن آلام المسلمين والعرب فى كل مكان ، فإذا ما كان صراخهم عاليا ذهب بجواريه ليشيد القصور فى جبال سويسرا أو غيرها حيث يذهب اللصوص بأموالهم . فهناك اتفاق بين لصوص العالم أن يكون هناك بلد محايد يحمى كل هارب بغنيمته من بلده ، ولا تحدد له يد لص آخر أو شرطى .

هكذا وجدا أنهما يعملان بلا هدف ، وبلا أيديولوجية تملؤهما حماسة ، بل بلا أسطورة . إنهما يعملان من أجل المال . ولاؤهما للمال . ورب البيت – صاحب المال – هو أيضاً ولاؤه للمال . والمال فى بنوك الغرب يستثمر لصالح الغرب – بل يستثمر فى إسرائيل قبل أن يستثمر فى أية دولة عربية . وما دام صاحب البلد العربى ولاؤه للمال الغربى ، فلا يعيب العامل المصرى أن يكون ولاؤه هو الآخر لذات المال . وينسى العروبة وينسى الإسلام بل ينسى مصر . وأخيرا ينسى أسرته وبيته ؟

نعم الزوج يذهب إلى عمله ليجنى المال ولا يريد أن يستمع إلى هموم زوجته . والزوجة فى وحدتها تريد أن تشغل نفسها . بعقل يملأ حياتها ، فيصفعها رحمها ويرفض . فتواجه مشكلتها الحقيقية قبل الأوان . إن زميلاتها اللاتى أنجبن قد أجلن هذه المواجهة . واكتفين بتخدير الانشغال بالأولاد والأسرة والمنزل . ولكنها واجهت المشكلة من جذورها فى وقت مبكر . إنها تتساءل : لماذا أعيش ؟ لمن أعيش ؟ هل استمر كزوجى الأبله مجرد عبدة للأجرة التى تقاضاها فى نهاية كل شهر ، بل لماذا يعيش هذا الأبله ؟ ولمن يجمع هذا المال ؟ لا توجد قضية تلهب مشاعره . ولا عقيدة تجعله يتحمل عذاب الدنيا فى سبيل تعويضه فى الآخرة . كل ما تبقى له من الإسلام هو ذلك الأداء الآلى للفروض . إنه يصلى كالآلة . ويحج كالآلة ويزكى كالآلة . والشهادتان على لسانه صوت بلا معنى . فهو لا يؤمن فى أعماقه بهدف الحياة . ولا يعلم مدى آلام إخوانه المسلمين فى العالم أجمع . إنه لا يعمل لكى يبنى عالما أفضل لهم . ولكنه يعمل ليتقاضى أجرا . لم يعد فى حياته غير هذا الورق الأخضر . وهو ورق تنخفض قيمته يوما بعد يوم .

لعله يحلم بالعودة إلى مصر . وأنه سوف يبنى هناك للأجيال القادمة . ولكن هيهات أنه يحلم . فقد نسى أننا خرجنا من مصر أصلا سعيا وراء الورق الأخضر . وعلى كل فهو يدرك أنه يحلم . وهذا الأمل ليس إلا مجرد أمل لفظى ، فوق أعماق نفسه يعرف أن ولاءه فى الأصل كان إلى حد كبير للورق الأخضر . ولم يتغير شىء بعد رحلته هذه ، إلا إذا ازداد ذلك الولاء للورق الأخضر . فقد تأكد أنه لو نادى بغير ذلك لصار وحيدا مجنونا . فالكل يدين للورق الأخضر . أما شعارات الدين والقومية ، فهى تطلق فقط لتأكيد الولاء للورق الأخضر وليس لتحطيمه . فالولاء للدين والوطن ليس إلا ولاء لفظيا . والولاء الحقيقى هو للورق الأخضر .

لقد هجر بنو إسرائيل نبيهم وعبدوا العجل الذهبى . أما العرب فقد عبدوا عجلا من الورق الأخضر يسبح فوق بحيرة من النفط الأسود . وفى قلب بلادهم فى المنطقة التى يحتدم الصراع والحوار بين الأيادى العاملة الجائعة والواقعة بين وادى النيل ووادى الأردن ، أبادا لم يشفع لها إسلام ولا نصرانية ولا يهودية فنالت جميعها جفاف نضوب النفط ، فتحولت بالتالى إلى فتيل لا ينقصه إلا شرارة ليحرق النفط وما يطفو على سطحه من ورق أخضر .

□